المقاومة الوطنية المسلحة في منطقة حوض تافنة 1836 - 1837

معركة سيدي يعقوب نموذجا

أ. محمّد قنانش

تمهيد:

لقد أدرك الجزائريون منذ زمن بعيد أن الاحتلال لا ينفع و الاستبداد لا يشفع و الحرية لا ثمن لها و أن التحرّر غاية تفدى لا تهدى . وفي هذا الإطار سنتناول نصيبا من مقاومة الأمير عبد القادر كعربون للحرية و نسلّط الضوء على جانب منها في الإقليم الغربي للجزائر و بالتحديد منطقة ولهاصة [1].

ونخصّ بالذكر معركة سيدي يعقوب التي وقعت في ربيع 1836 كنموذج عن مسيرة الكفاح الوطني ، صنع أحداثها أهالي حوض واد تافنة ذودا عن سيادة الوطن . تمثل هذه المشاركة التاريخية لأهالي ولهاصة استجابة تلقائية لنداء المقاومة الشعبية من قبل الأمير عبد القادر ما بين سنتي 1834 و 1838.

أوّلا : خصائص الوسط الطبيعي للمنطقة

تحتل منطقة ولهاصة مساحة هامة من ولاية عن تموشنت تبلغ 150.50 كلم^2 موزعة على بلديتي سوق الاثنين 86.29 كلم^2 و سيدي ورياش 64.21 كلم^2 على وجه التحديد[2] . يقع شريطها الساحلي على الواجهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط على مسافة 20 كيلو متر . يتميز الإقليم بغطائه الطبيعي المتميز تضاريسه الأطلسية التلية الإلتوائية حديثة التكوين تعود إلى الزمن الرابع و هي بمثابة حصون طبيعية و بطون للثورات منذ العهد النوميدي إلى عهد الأمير عبد القادر إلى قيام حرب التحرير الخالدة . أهم المرتفعات جبل بوكلثوم على ارتفاع367 متر و الذي تمتدّ عليه منطقة سيدي يعقوب و سيدي رحمون حيث تصل رقعته الجغرافية إلى محاذاة الساحل و جبل تفرجون قمته 201 متر الواقع غرب واد تافنة ، يتوسط دوّار بوالأحمر ودوّار عبن مزيان[3] . تغطي السطح بولهاصة مجموعة من التلال و الهضاب و التي تتخلّلها عدّة أودية ساعدت السكان على الاستقرار و استغلال الأرض و ممارسة حرفة الرعي . كما تعرف هذه البيئة الطبيعية بمظاهرها المتنوّعة التي هي جزء لا يتجزأ من النسيج الطبيعي العام منطقة سيدي يعقوب و سيدي رحمون و الزوانف السفلى .

ثانيا :طبيعة السكان

يتجلّى سكان ولهاصة بمكارم الأخلاق توارثها الناس عبر العصور ، ضاربة جذورها في العهد النوميدي [*] إلى الفتح الإسلامي قيم تحصن بها المجتمع الولهاصي على مرّ الزمن . فبحكم تاريخها فإن ولهاصة منطقة نوميدية بربرية انصهر فيها العنصر الأمازيغي مع العنصر العربي خلال الفتح الإسلامي للجزائر . و ما تزال إلى يومنا بعض الأماكن شامخة تحمل أسماء من أصول أمازيغية مثل تيملاحين تادماية ، تفرجون . تآلف هؤلاء السكان منذ القدم على ممارسة النشاط الزراعي و تربية المواشي وأصبح الإقليم ذي طابع فلاحي بحث و هذا النشاط يتماشى مع الطابع المورفولوجي للمنطقة . تذهب الكتابات الفرنسية خلال الحقبة الاستعمارية إلى القول بأن القطاع الغربي للجزائر قطاع زراعي و إقليم "تافنة السفلى" نموذج عن ذلك باعتباره أراض خصبة لإنتاج الحبوب [4] . إن المخزون الثقافي و الإبداعي للسكان يتجلّى في المنتجات الفخارية و النباتية التي تزخر بها الصناعة التقليدية كالأواني الفخارية من مزهريات و سعفات و صحون مختلفة الأحجام و الأشكال و الألوان و من أهم المراكز الشهابنة ، سيدي يعقوب سيدي رحمون ، حماموش و زوانف التحاتة [5] . يضاف إلى رصيد المنطقة الموروث التاريخي النوميدي في بني غنام حيث كركار العرايس الموجود على هضبة ارتفاعها 222 متر .

---

* [1] أستاذ مساعد ، قسم التاريخ ، جامعة جيلالي اليابس ، سيدي بلعباس

و مدينة سيقا العتيقة عاصمة الملك سيفاقس على ضفة واد تافنة و جامع الحق العتيق بناحية شاطى رشقون [6]

مما لا شكّ فيه أن ظروف المنطقة المتسارعة التي ميّزت الجزائر في هذه الفترة لم تكن تبعث على الارتياح خاصة

بعد انهيار الحكم العثماني و تعرّض الجزائر للغزو الفرنسي بقيادة الكونت دي بورمون و الأميرال دي بيري [*].

ثالثا : الأوضاع السياسية في الأقاليم الغربية ما بين 1834 و 1836

فقدت الجزائر سيادتها بعد سقوط النظام العثماني و أخذت فرنسا في التوسّع لتحوّل الجزائر إلى مركز نفوذ تعوض بهخسائرها في أمريكا و الشرق الأقصى . احتل الجيش الفرنسي مناطق محدودة من الشريط الساحلي لتكون فيما بعد منطلقات للتوغل نحو الجزائر العميقة . و طال نفوذ الاحتلال مدينة القالة و عنابة و الشلف و القل و بجاية و الجزائر و شرشال و أرزيو و وهران . تمّت عملية إخضاع هذه المواقع بالتدريج على مدى ست سنوات متتالية من سنة 1834 إلى 1840 [7] . إن اقتحام جيش الاحتلال و توغّله داخل هذه المناطق الساحلية و شبه الساحلية يدلّ في اعتقادنا على رغبة الإدارة الفرنسية في التوسّع السريع بهدف تصفية بقايا الحكم العثماني حتى لا تتكرّر ثورة سطاوالي من جديد التي وقعت في جوان 1830 . تجدّدت المقاومة في الأقاليم الغربية بقيادة الأمير عبد القادر سنة 1832 و كان جيشه يقاتل الغزاة في تافنة السفلى بنواحي ولهاصة إلى حدود واد سكاك و عين إبراهيم تحت أوامر الملازم محمّد البوحميدي الولهاصي . و يعرف البوحميدي بالنزاهة و العدل حيث كان رفيق الدراسة للأمير الذي يكبره بأربع سنوات ، ينتسب إلى قبيلة ولهاصة و من أفضل الفرسان يستعمل البندقية و السيف بكفاءة و إعجاب [8] . لما اشتدت المقاومة بين الجيش الجزائري و قوات العدو ، لم يفلح الأمير في تحرير وهران و مستغانم اللتين حصّنهما الجيش الغازي . و بعد شن عليه الغارة تلو الأخرى أخفق الأمير و اضطرّ إلى عقد معاهدة 1834 بين الجنرال دي ميشال و الأمير عبد القادر . مكّنت هذه المعاهدة الأمير من كسب الوقت و السلم و تأمين الأقاليم الغربية بما في ذلك منطقة ولهاصة و حوض واد تافنة . كما سعى الأمير إلى إيقاف التوسّع الفرنسي و منعه من التوغل إلى الداخل مقابل اعترافه بسيادة الجيش الفرنسي على وهران و مستغانم [9].

رابعا : الأوضاع الاقتصادية في الأقاليم الغربية ما بين 1834 و 1836

بعد انحطاط الحكم العثماني تنامي خطر التوسع الامبريالي الفرنسي على الجزائر. ولكن الأمير عبد القادر أدرك بفكره الصائب و رأيه الثاقب المتغيرات الاقتصادية للوطن المهدّد فأسس الدولة الجزائرية على قواعد متينة أساليب حديثة مراعيا الجوانب السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية . اهتم الأمير عبد القادر بالحياة

الاقتصادية كالزراعة و الصناعة لدفع عجلة التنمية . شهدت منطقة ولهاصة تطوّرا في هذا المجال ، ارتفع إنتاج الحبوب و الخصر و اتسعت مساحة الأشجار المثمرة . الزراعة في الإقليم الغربي مطرية و مروية تتغذّى بشكل مباشر من مياه حوض تافنة و مجرى واد ياسر. استطاع السكان التكيف مع بيئتهم الطبيعية الصعبة فمارسوا النشاط الزراعي على مرتفعات ترارة و سهول تلمسان . احتلّت حقول الحمضيات كالبرتقال معظم أراضي حوض واد تافنة .[10] واكبت الصناعة نشاط الزراعة و تم إنشاء مصاهر الحديد و مطاحن البارود كان أهمّها في عمالة تلمسان نذكر منها مطحنة البارود بناحية جبل سقونة جنوب شرق بني صاف الواقعة شرق حوض واد تافنة لقد شوهدت الأفران و المصاهر و المنافخ والدواليب تصنع المدافع في تلمسان .[11] ركز الأمير في نظرنا على وضع الاقتصاد في خدمة الحرب بإقامة صناعة عسكرية دفاعية يطلق ع ليها في وقتنا الحالي الصناعة الإستراتيجية . يرى ليون روش أن الأمير عبد القادر استطاع بفضل الجهود التي بذلها قي سبيل تحسين الزراعة و تحديث الصناعة أن يضع تحت تصرّف جيشه الأموال المنقودة و البارود و القمح و الرصاص و النحاس و الحديد و الجياد .[12] استطاع الأمير أن يستوعب أسس الدول الحديثة و قواعد تطوّرها فأدرك أهمية الاقتصاد و قضاياه و منطق الرجال و مزاياه و سلوك الاستعمار و ضحاياه و خطر التخلّف و خباياه .

خامسا : الأوضاع الاجتماعية في الأقاليم الغربية

كان المجتمع الولهاصي مجتمعا محافظا في قيمه و ريفيا زراعيا في نشاطه و معاشه .ولكن التحولات التي رافقت الوضع المتأزم

بين فرنسا و الإيالة في الجزائر ألقت بظلالها على حياة الناس . تدهورت الأوضاع الاجتماعية و الثقافية قبل الغزو الفرنسي و بعده

حيث دفع الجزائريون الثمن غاليا أثناء الحصار الفرنسي ما بين 1827 و 1830 و اتسعت الهوة الاجتماعية بين الأهالي و المعمّرين فشاع الفقر و عمّ المرض و اتسعت دائرة الجهل والاستبداد بفعل قوانين

التنظيم الإداري المفروضة على قدر الجزائريين بداية الاحتلال . وأضحى الجزائري من ولهاصة إلى القالة عنصرا أسيرا منزوع المواطنة إذ اعتبره قانون الأهالي من رعايا فرنسيين .[13] أخضعت الإدارة الاستعمارية التجمعات القروية الأهلية كما هو حال إقليم ولهاصة ، سكان الدواوير و المداشر و العشائر لمجلس الجماعة و هو مجلس قروي يتكون من بعض أهالي القرية يتم اختيارهم من قبل السلطة الاستعمارية. يضع هذا التشريع الإداري المجتمع الولهاصي تحت الرقابة المباشرة ، ممّا سيشكّل النواة الأساسية للبلديات المختلطة و المكاتب العربية . الجلوع و الأمية و الفقر وضع الجزائري في الأرياف شريحة مهددة بالانقراض .[14] وفي رسالة بعثها الدوق روفيقو(duc Rovigo) من الجزائر إلى وزير الحرب يوم 15 أكتوبر 1832 قال فيها ما يلي : " إنشاء المدارس أمر ضروري و أخلاقي سيدي الماريشال ولن تصبح الجزائر فرنسية صرفة إلا بنشر لغتنا الفرنسية على أوسع نطاق و في أقرب الآجال ".[15] استهدف الاستعمار هدم مقوّمات الأمة الجزائرية من البرّ إلى البحر ومن المدن إلى الأرياف . و لهذه الغرض جندت الإدارة آليات التفقير و التجهيل و التنصير، حيث قال الماريشال دي بورمون و هو يخاطب جنوده بعدما استولى على مدينة الجزائر قائلا : " لقد جدّدتم عهد الصليبيين . "[16] واجه أهالي ولهاصة سياسة الاحتواء و التغريب بحرصهم الشديد على هويتهم و مكوّنات ثقافتهم و ذلك بانضمامهم إلى الحركة الصوفية المتواجدة قبل الاحتلال بالمنطقة مثل زاوية سيد الجازولي العيسوية و زاوية النجاجرة الشادلية .

معركة سيدي يعقوب محطة من محطات المقاومة الوطنية المسلّحة التي قادها الأمير عبد القادر بنفسه في الجزائر الشمالية الغربية كما تأتي في سياق شمولية التحرّر الوطني الذي ترمي إليه خطة الأمير. قامت المعركة يوم 24 أفريل 1836 بإقليم واد تافنة.

سادسا : أسباب المعركة و دوافعها

ما من شكّ أن التخطيط لأي معركة يقتضي أخذ قي الحسبان طبيعة الموقع الجغرافي و خصوصياته . و يكون قد أدرك قادة جيش الأمير بوعي و راوية هذه المسألة الإستراتيجية . لقد كانت المسالك الصعبة و الجبال الوعرة و الوديان المنتشرة حافزا ومنطلقا وميدانا للمعارك . و ينطبق هذا الأمر على معركة سيدي يعقوب التي أشرف على تنظيمها و متابعة سير أحداثها خليفة الأمير في عمالة تلمسان و أحد ضباطه محمّد البوحميدي الولهاصي . الوسط الطبيعي لمنطقة سيدي يعقوب ملائم لمقاومة و هو جزء من الأطلس التلّي يحدّه شمالا الساحل المتوسطي و جنوبا مجموعة بني غنام و دوار أولاد حمادي غربا جبل بوكلتوم و دوار الشهابنة و شرقا دوار زوانف و سيدي لعرج حيث معدّل الارتفاع ما بين

150 إلى 300 متر . [17] تتخلّل الإقليم مجموعة من الشعاب و الوديان و المنخفضات بمثابة الحصن الحصين لمقاتلي الجيش الجزائري . فتوسيع المقاومة من خلال معركة سيدي يعقوب عامل كبير في استثمار التضاريس الوعرة بهدف إرباك العدو و تشتيت قوته ، لأن تخطّي وديان الهضاب العالية و الجبال الشاهقة تجبر جيش الغزاة على قطع المسافات الطويلة ممّا يعرّضه إلى تفكّك قوّته و إجهاد طاقاته . [18] نزعة التوسّع و العدوان لدى ساسة فرنسا و قوة إصرارها على نقض المعاهدات ، إرادة زكّتها أغلبية مجلس النواب الفرنسي التي سلّمت بفكرة استمرار احتلال الجزائر ، و حسب جيزو (Guizot) [*] فإن الاحتلال يرفع معنويات فرنسا و يحافظ على مكانتها في البحر المتوسّط .[19] هذه المواقف الرسمية أجّجت لهيب الكفاح المسلّح عند الجزائريين و تأتي معركة سيدي يعقوب في هذا الاتجاه كنموذج للتحرّر الوطني لردع الاستعمار في بكورته.

لا يدرك البعض أحيانا منبع المعركة و مصدر انطلاقها ، و إن كان محيطها العام إقليم ولهاصة ، فإن إطارها الخاص هو سيدي يعقوب مهد المقاومة الشعبية المسلّحة . فسيدي يعقوب قرية صغيرة فيها أمكنة عبادة تتمثل في مسجد سيدي

يعقوب العتيق تقع جنوبي غربي وادي تافنة على مسافة لا تتعدى 8 كيلومترات . جل سكان القرية على منحدرات تلّ

صغير و البقية منهم داخل غطاء نباتي[20] لم يكتف فرنسا الاستعمارية بمسألة الاحتلال المحدود و التوسّع المشروط ، بل دأبت

على توظيف آلياتها التشريعية لإطلاق يدها على كامل التراب الوطني . و لهذا الغرض ، أ قامت الحكومة الفرنسية في الجزائر جهازا إداريا يخضع للنظام العسكري بغية إحكام سيطرتها على المستعمرة و تحويلها إلى مقاطعة فرنسية بموجب قرار

الإلحاق الصادر في 22 جويلية 1834 . [21] و كانت السلطة الاستعمارية قد وطدت أركان وجودها عندما أنشأت سنة 1833 جهازا مدنيا إداريا مكلّفا بالرّقابة و التبليغ يدعى المكاتب العربية تضم مترجمين و مختصّين في الشؤون العربية يتم اختيارهم من قبل الإدارة الاستعم ارية . و تقوم هذه المكاتب بجمع المعلومات و التحقيقات ذات الصلة بالجزائريين .[22] إذا كانت معاهدة ديميشال و الأمير عبد القادر الموقع عليها في 26 فيفري 1834 نصرا للرجلين لكونها اعترفت فرنسا لسلطة محدودة للأمير مقابل اعترافه بالسيادة الفرنسية على منطقة وهران و مستغانم فإنها في نظرنا قلصت من سيادة الأمير على البلاد و حققت حيزا معينا من المشروع الإدماجي التوسّعي الذي دعا إليه قيزو و أنصاره من النواب الفرنسيين . [*] كل هذه الظروف هدّدت السيادة الوطنية و دفعت بعجلة المقاومة إلى الأمام و جعلتها تمتدّ إلى نواحي عمالة تلمسان . تمكّن النظام الاستعماري من تعزيز وجوده و عمدت إدارة الاحتلال على تدمير البنية الاقتصادية و الاجتماعية للجزائريين الذين فقدوا ممتلكاتهم و حقوقهم و سعت وراء ذلك إلى غاية أساسية تضمن لها البقاء و الاستقرار في الجزائر ، ألا و هي تجويع و تفقير المجتمع الأهلي و تصفيته من روح المقاومة . لقد جرّد الأهالي من أملاكهم و بلغ بهم الشقاء إلى حدّ التسوّل و لكن لم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل طال تحطيم الصناعة التقليدية و أدّى إلى غلاء المعيشة. [23] بعد الانتهاء من تصفية رواسب الحكم العثماني سنة 1833 ، شرعت إدارة الاحتلال في الاستيلاء على العقار و قامت بحجز أملاك البايلك و أملاك الحبوس . [24] و أدّت هذه الإجراءات التعسفية إلى انتفاضة سكان الأرياف في المقطع و سيدي يعقوب بدعم من الحركات الصوفية. إذا كان الوضع السياسي و الاقتصادي قوة دافعة للانتفاضات الشعبية ، فإن الوازع الديني هو محرّكها و وقودها و شعلتها التي أنارت سبيل النضال و الكفاح. إنّ الوسط الطبيعي و الجغرافي الذي يحيط بمنطقة ولهاصة عموما و سيدي يعقوب خصوصا أفرز بيئة اجتماعية محافظة ، نشأ و ترعرع في كنفها أهل المنطقة و خلقت جيلا غيورا على الدين

و الوطن .يعود الفضل في هذا المجال إلى نشاط الحركة الصوفية و زواياها المتواجدة التي أنجبت رجالا من الصالحين مقامهم ما يزال إلى يومنا شامخا في قبة سيدي أحمد المدني و سيدي أحمد بن عربية و سيدي رحمون . تشكل هذه المواقع الطاهرة مثلثا جغرافيا يتمركز في وسطه مسجد سيدي يعقوب الذي يعدّ في رأينا منبع المعركة و مجراها الفياض . [*] الوعود التي قطعها الغزاة بحماية مقوّمات الجزائريين التاريخية و الحضارية ، انقلبوا عليها من خلال تناقض الخطاب الكولونيالي . و في هذا الصدد قال دو برمون : " يا

أيها ساداتي القضاة و الأشراف و العلماء و أكابر المشائخ ، أقبلوا مني أكمل السلام بمزيد من العز والإكرام . و يا أعز أصدقائنا و محبّينا سكان الجزائر اعلموا و تأكّدوا يقينا أني لست آتيا لأجل محاربتكم فعليكم أن لا تزالوا آمنين و مطمئنين في أماكنكم . أنه ليس في من يريد بضرّكم لا في مالكم و لا في أعيالكم . أن بلادكم و أراضيكم و بساتينكم و حوانيتكم وكل ما هو عليه يبقى على ما هو عليه فآمنوا بصدق كلامي ، ثمّ أننا نضمن لكم أن جوامعكم و مساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي الآن عليه و أن لا يتعرّض لكم أحد في أمور دينكم و عبادتكم . يا أيها (الجزائريون) أهل الإسلام أن كلامنا صادر عن الحبّ الكامل و انه مشتمل على الصلح و المودّة . " [25] كان الجزائريون على درجة عالية من الوعي و اليقظة لما استوعبوا محتوى خطاب دي بومون مدركين أبعاده و مراميه ، فواصلوا المقاومة لكسر شوكة الغزاة إلى جانب الداي حسين في معركة سطاولي سنة 1830 و بعدها مع الأمير في واد المقطع 1835 و سيدي يعقوب بوطاصة 1836 . جاء الخطاب ليكرّس منطق المناورة و الخداع و الإغراء ، فهو يشبه إلى حدّ ما سلم الشجعان الذي نادى به شارل ديغول سنة 1958 .

سابعا : سير المعركة و نتائجها

إذا تتبعنا مسيرة المقاومة الوطنية المسلّحة في عهد الأمير عبد القادر ، يتعيّن علينا أن الفترة الممتدّة بين سنتي 1834 و 1835 تشكّل نقطة تحوّل حاسمة باعتبارها منعطفا جديدا حقّقته المقاومة على الصعيدين السياسي و العسكري . على

المستوى السياسي حقق الأمير انتصارا ديبلوماسيا عندما وقع على معاهدة دي ميشال 1834 ، أوقف بها الزحف الفرنسي و أخره إلى حين و دشن مرحلة سلم مكّنه فيما بعد من إعادة النظر في استراتيجية المقاومة . ومن جهة أخرى الانتصارات

العسكرية التي أحرز عليها جيش الأمير في المقطع و سيدي مبارك أعطت في رأينا قوّة على الصمود و التحدّي لإفشال المخطط الاستعماري . حدّدت قيادة الجيش الجزائري ميدان المعركة في رقعة جغرافية مساحتها 25 كلم^{2}تبدأ من منطقة سيدي يعقوب غربا حيث يقع المسجد العتيق ، إلى مصب وادي تافنة شرقا حيث شاطئ راشقون و ملتقى مجرى وادي الأطشم و تافنة الغربي جنوبا . عدد القوات الجزائرية في هذه المعركة 4000 فارسا لمحاربة قوات الجيش الفرنسي البالغ 1800 مقاتلا مدعّما بأربع مدافع ميدان وأربع مدافع جبلية . [26] بقي الجيش الفرنسي محاصرا عند معسكر مصب وادي تافنة ومنع من الوصول إلى مركز التقاء مجرى وادي الأطشم و تافنة و طوّقت المنطقة عليه بثلاث وحدات قتالية جزائرية.قاد جيش العدو دارلنج (D'Arlanges) الذي كان حاكما في الجزائر مند أوت 1835 إلى حزيران 1836. أصبح دارلنج قائد قوات وهران محاولا تطبيق تعليمات كلوزيل القاضية بتحصين معسكر بوادي تافنة الذي وصله بجيشه البالغ 3000 جندي و ضابط و 8 مدافع .[27] أنشأ الجيش الجزائري معسكرين لتضييق الخناق على القوات الغازية ، الأول في سيد يعقوب و الثاني قرب مصب وادي تافنة وكانت الإمدادات تأتيه من معسكر مدينة تلمسان مرورا بالمسلك الرابط بين عين يوسف و سبع شيوخ على بعد 60 كيلو مترا تقريبا . أشرف الأمير بنفسه على إدارة المعركة و توجيهها ، سالكا خطة عسكرية قتالية محكمة وصفها البعض بالإستراتيجية الحربية لدى الأمير من ذكاء عسكري للجيش الجزائري . رغبة منه في الإطّلاع على الجوّ العام السائد في إقليم وادي تافنة ، سعى دارلنج إلى فكّ الحصار على معسكره ، فجهز جيشه المكوّن من 1800 مقاتل من جنود و ضباط قاصدا منطقة ولهاصة حيث عبر واد تافنة في ليلة 24 و25 أبريل 1836 .

لما وطأت أقدام الفرنسيين أرض سيدي يعقوب الطاهرة ، سارع الأمير عبد القادر لملاقاة دارلنج الذي كانت قواته تعسكر على ضفة نهر يسر . و بينما كانت قوات الأمير الرئيسية تحاصر الجيش ، هاجمت قوة أخرى من جيشه بقايا قوات دارلنج التي كانت تتمركز في معسكر تافنة تحت قيادة الكولونيل لومارسي (Lemercier) . اشتدّ الحصار على الجنود الفرنسيين الذين لم يتمكّنوا من الرجوع إلى معسكرهم بواد يسر و انهزم المشاة و وصل جيش الأمير إلى مواقع المدفعية . و عند الظهر استطاع الجيش الجزائري دحر شوكة العدو و تشتيت وحدته وأصيب دارلنج و رئيس أركان حربه بجراح . و انتهت معركة سيدي يعقوب التي قادها الأمير بنفسه على صهوة جواده .[28] إذا كانت معركة سيدي يعقوب في مداها القريب مجرّد اشتباكا قتاليا خاضه سكان ولهاصة بالقسم الغربي من حوض تافنة ، فإن المعركة في مداها البعيد برهان عبّر

من خلاله أهل المنطقة عن تمسّكهم الوثيق بسيادة الوطن و كرامته . و يتبين هذا المسعى العظيم في المكاسب الكبرى التي جنتها المعركة في ظلّ المقاومة الشاملة التي قادها الأمير عبد القادر ضدّ الغاصب الفرنسي . إنها ردّة فعل وطنية شعبية تحرّرية على الحملة الفرنسية الاستعمارية الغازية لبلادنا عكست في تقديرنا شمولية المقاومة الشعبية و أبطلت مزاعم القادة العسكريين الفرنسيين بأن المقاومة على وشك الزوال . اعتقد كلوزيل أن النصر المبين قادم لا محال ، خاصة لما دخل الفرنسيون عاصمة الأمير مدينة معسكر التي وجدوها مهجورة محروقة . [29] ولكن المقاتلون الجزائريون كانوا على قدر كبير من الانضباط و الولاء لقيادة الأمير و خطته العسكرية المنتهجة في معسكر تافنة ، حيث أثبتوا في سيدي يعقوب إفشال الاستراتيجة الاستعمارية وخلق خلل رهيب في قيادة الجيش الفرنسي ، ممّا دفع برئيس الحكومة الفرنسية تيير (Thiers) إلى الاستبدال الاضطراري العاجل للقائد كلوزيل بالجنرال هنري بيجو (Bugeaud) الذي أرسل إلى وهران على رأس إمدادات جديدة ، فكان ذلك أوّل حضور لبيجو على أرض الجزائر المكافحة . تطلّع الأمير عبد القادر إلى نصر جديد لإبراز الكفاءة القتالية لجيشه و رفع معنويات رجاله و إرباك الجيش الاستعماري المدجّج بالبنادق و المدافع ، وتحقق هذا المكسب بفكّ الحصار على معسكر واد تافنة خلال النصر المبين في موقعة سيدي يعقوب . تغيّر الموقف الرسمي الفرنسي على ضوء أحداث إقليم ولهاصة ، و حذت فرنسا مع الأمير حذو السلم و التفاوض عوض العنف و القتال المستمر ، وتجلّى هذا التوجه الجديد في معاهدة تافنة 30 ماي 1837 .أجبرت معركة سيدي يعقوب العدو على التراجع و عطلت آلة الاغتصاب و التوسّع .

إن النصر العظيم في سيدي يعقوب ستكون له آثار سياسية عميقة الأبعاد في مجرى الأحداث . [30] و بالفعل لقد تجسّدت

الرؤية البراغماتية للأمير في المكاسب التي تحققت ما بعد سيدي يعقوب على أساس وثيقة معاهدة تافنة التي ضمنت للدولة الجزائرية قدرا من السيادة المسترجعة . يرمي المخطط الاستعماري إلى خلق تصدّع عميق في وسط الجزائريين بإيهام فئاته الاجتماعية و الدينية بمشاريع وهمية إغرائية لا تخرج عن دائرة مشروعي بلوم فيوليت (Blum Violette) 1936 و قسنطينة 1958 بغاية زعزعة الموقف الوطني الحرّ .

و لبلوغ هذا الهدف أغرى الفرنسيون الرؤساء المحليين على عصيان أوامر عبد القادر فعقدوا معهم معاهدة التينه يوم 16 جوان 1835 التي وضعتهم تحت السيادة الفرنسية . تواصل نفس المخطط في مطلع أبريل 1836 على يد كلوزيل عندما طلب من مصطفى بن إسماعيل دخول مدينة تلمسان ويعلن ولاءه لفرنسا و قبوله خدمتها مع جنوده من الكولوغليت.[31] ولكن الانجاز العظيم الذي تحقق في سيدي يعقوب أحبط الم خطّطات المشبوهة . أن تفهّم السكان لطبيعة وسطهم الجغرافي بكلّ مكوّناته من سيدي يعقوب شمالا إلى فرجون جنوبا جعل المرء يقتنع أن المجتمع الولهاصي نجح في استغلال هذا البيئة الساحرة ليسخرها في دحر قوات كلوزيل و دارلنج . فالقدرات الهائلة لدى الإنسان تجعله يرقى بها مستخدما كل إمكانياته ليتصرّف في شؤون بيئته و يوظفها في خدمة مآربه و أغراضه .[32] إن منطقة فرجون القاعدة الخلفية للمعركة تحدثت عنها الكتابات التاريخية و أبرزت أهميتها من خلال قصرها العتيق الذي بني في فرجون يتكوّن من 30 مسكن ذي طابع معماري عربي على امتداد هضبة تغطّيها الأشجار المثمرة ، ترتفع لتشكل الضفة اليسرى لمجرى الواد و يعيش سكانها من غلات الأرض و تربية المواشي .[33] سيدي يعقوب شهادة حية يعتز بها أهالي منطقة واد تافنة ، يعكسها حبهم الفياض لمثل الحرية و الكرامة و التضحية والأخوة التي توارثوها عبر الأجيال مند سيفاقس النوميدي الجزائري إلى عقبة الفاتح العربي إلى الأمير الصوفي القادري . تلك المبادئ الصوفية العليا انغرست في إقليم ولهاصة مند القرن الثالث عشر و امتدت عبر التاريخ إلى ما بعد الاستقلال . و يعود الفضل في هذا المقام إلى الزاوية الجاز ولية العيسوية التي أسّسها محمد بن عيسى الإدريسي في مكناس بالمغرب الأقصى و المتوفى بتاريخ 1524 م و يقدّر عدد مريديها اليوم 4500 رجل تقريبا .[34] و الزاوية الشادلية ببلدة الخميس التي هي امتداد للطريقة الشادلية التي أسّسها أبو الحسن الشادلي التونسي المتوفى سنة 1258 في مراكش و منها انتقلت إلى الجزائر ، و من أبرز دعاتها العربي الدرقاوي المتوفى عام 1823 .[35] كانت هذه الطرق الصوفية وراء عدّة ثورات ، بل كانت

طاقتها المحرّكة . و من ناحية أخرى ، إن الانتفاضة التي بزغ نورها على أرض سيدي يعقوب الطاهرة و النصر الكبير الذي رفع من هيبة الجيش الجزائري في معسكر تافنة يضع الإنسان الصالح مصدر أي انجاز تاريخي ، و لذلك اعتمد الأمير على صلاح الفرد لربح معركة التحدّي و درء مقاصد الغاصب المعتدي . و موقعة سيدي يعقوب نستلهم منها هذه الصفوة من الرجال و هذه النخوة من الأبطال ، لأن الفرد هو أساس الإصلاح و لبنته الأساسية في البناء الاجتماعي و الحضاري . [36] لقد كانت معركة سيدي يعقوب طفرة نوعية في تاريخ المقاومة الوطنية لأنها أوقفت الزحف الاستعماري الفرنسي و فرضت عليه مراجعة نفسه و تصحيح مفاهيمه ، بأن المجتمع الجزائري بعد نفارين ليس برجل إفريقيا المريض ، و ما انتصارات جيش الأمير عبد القادر في سيدي يعقوب وغيره إلا دليل قاطع على وطنية الأمة الجزائرية الغيورة على كرامة البلاد و عزة العباد.

خاتمة

مسألة الدفاع عن السيادة عند الجزائريين تاريخ حافل بالأحداث لما يمثله من محطّات رائعة و مواقف رائدة صنعت أمجادها المقاومات الشعبية التي خاضها الجزائريون ضدّ المحتل الأجنبي الغاصب . لعلّ مقاومة الأمير عبد القادر تواكب هذا الجانب من الأهمية . لقد سجلت معارك جيش الأمير أصدق تعبير عن تعلّق الجزائريين بمبدأ الحرية و الوطنية . و معارك إقليم واد تافنة مضرب المثل في سبع شيوخ و واد الأطشم و سيدي يعقوب ، تستدعي القيمة التاريخية لموقعة سيدي يعقوب وقفة تروّ و تأمّل في النتائج التي حققتها المعركة بكل أبعادها و انعكاساتها على مصير المقاومة . لا شك أن هذه المعركة و إن كانت في حجمها الزمني قتال خاطف و اشتباك عاصف ، إلا أنها أعطى فيها سكان ولهاصة درسا للغزاة و لقنوا

لهم شهادة حية في التحدّي و الصمود . و المعارك الكبرى التي عرفها المجتمع الحديث و التي كانت مصدر الظواهر التاريخية في واترلو سنة 1815 أين انهزم جيش نابوليون على يد قوات ويليغتون

الانجليزية فإن معركة سيدي يعقوب ظاهرة تاريخية في حدّ ذاتها لأن إرادة أهالي ولهاصة رفضت الانقياد في فلك القوى المحلّية المتحالفة مع الاحتلال يتزعّمها مصطفى بن إسماعيل ، فوقفوا بالمال و العيال مع الأمير نصرا له و لمشروعه الوطني التحرّري . لا ريب في ذلك ، أن المقاومة الشعبية في منطقة ولهاصة عموما و على أرض سيدي يعقوب خصوصا رفعت من شأن الأمة الجزائرية المكافحة تحت لواء الأمير عبد القادر . و في هذا الشأن يقول شارل أندري حوليان : " أراد بيجو الثأر و الانتقام من هزيمة واد تافنة (معركة سيدي يعقوب) لأن الأمير أصبح بطل الأمة العربية ." [38] و لعلّ هذه القيم و المواقف المفعمة بالحرية و المتشيعة بالوطنية ستكون طاقة المغذية و القوة المحرّكة لثورة نوفمبر المجيدة .

الهوامش

(1) : منطقة جغرافية تقع غرب مدينة بني صاف يقطعها واد تافنة و يقسمها إلى ولهاصة غربية و شرقية و تشكل حاليا إحدى دوائر ولاية عين تموشنت و تضم إداريا بلديتي سوق الاثنين و سيدي ورياش .

(2) MONOGRAPHIE DE LA WILAYA D'AIN TEMOUCHENT, A.P.C DE BENI – SAF , 1990 , p 7

(3) CARTE D'ALGERIE , BENI-SAF N^{OS} 5 – 6 , INSTITUT GEOGRAPHIQUE NATIONAL , 136 RUE DE LA GRENELE , PARIS , FRANCE .1960

(*) مصطلح تاريخي يوناني يعني المجتمع الذي نشأ على ممارسة أهله منذ القدم حرفة الترحال و الرعي ، مأخوذ من اللغة الفرنسية (NUMIDE,NOMADE)

(4) TINTHOIN (Robert) ,L'ORANIE SA GEOGRAPHIE , SON HISTOIRE , SES CENTRES VITAUX , ED. L. FOUQUE , ORAN , 1952 , p 52 .

(5) DONNEES TOURISTIQUES ET D'ARTISANAT , P.D.A.U , GROUPEMENT OULHACA GHERABA ET SIDI OURIACHE , 1990

(6) CARTE D'ALGERIE , OP. CIT , 1960

(*) الكونت دي بورمون قائد الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر ، أمّا دي بيري فهو قائد القوات البحرية المدعّمة للحملة الاستعمارية

(7) BERNARD (P.) , REDON (F.) , PROGRESSION DE LA DOMINATION FRANCAISE EN ALGERIE , IMP. JULES CARBONE , ALGER , 193 p116

(8) حرب أديب ، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر الجزائري ، ط (2) ، دار الرائد للكتاب ، الجزائر 2004 ، ص 144 .

(9) قدّورة زاهية، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1975 ،ص499 . 500

(10) TINTHOIN (Robert) , OP. CIT , p 25 .

(11) بورويبة رشيد ، القلاع و الحصون و المؤسسات التي أنشأها الأمير عبد القادر ، عن مجلة الثقافة ، عدد خاص جوان 1983 ، ص ص 87 . 101 .

(12) قداش محفوظ ، جيش الأمير عبد القادر تنظيمه و أهميته ، ترجمة حسن بن مهدي ، نفس المرجع ، ص 51 . 74

(13) BERNARD (P.) , REDON (F.) , L'ALGERIE HISTOIRE , COLONISATION , ADMINISTRATION , ED . JULES CARBONEL , ALGER , 1936 , p 227

(14) ABBAS (Ferhat) , LE JEUNE ALGERIEN , pp 180 – 181 .

(15) FEAUD (L. Ch.) , LES INTERPRETES DE L'ARMEE D'AFRIQUE , pp. 230 - 231

(16) الأشرف مصطفى ، الجزائر الأمة والمجتمع ،ترجمة حنفي بن عيسى ، م . و . ك ، الجزائر ، 1983 ، ص 51

(17) CARTE D'ALGERIE , OP.CIT , 196

(18) صاري حيلالي ، مجلة الثقافة ، عدد خاص ، المرجع السابق ، ص ص 103 . 108 .

(*) رئيس الحكومة الفرنسية ، عاصر بدايات المقاومة

(19) يحي جلال ، العالم العربي الحديث ، دار المعارف ، مصر ، 1967 ، ص 154

(20) حرب أديب ، المرجع السابق ، ص 274

(21) C.A.O.M , BOITE N° 51/ 40 , AIX – EN – PROVENCE , FRANCE .

(22) C.A.O.M , IBID

(23) الأشرف مصطفى ، الجزائر الأمة والمجتمع ،ترجمة حنفي بن عيسى ، م . و . ك ، الجزائر، 1983 ، ص202

(24) GALLISSOT (René) , L' ECONOMIE DE L'AFRIQUE DU NORD , ED.P.U.F , FRANCE , 1964 , p 39

(*) لعب هؤلاء الأولياء الصالحين دورا تاريخيا في تعبئة أهالي ولهاصة و توعيتهم على أساس الذود على الدين والوطن حسب شهادات أعيان المنطقة

(25) سعد الله أبو القاسم ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، القسم الأول ، ط (2) ، ش . و . ن . ت . ، الجزائر 1981 ، ص ص 277 . 279 .

(26) حرب أديب ، المرجع السابق ، ص 340

(27) العربي إسماعيل ، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ، ط (2) ، ش . و . ن . ت ، الجزائر، 1982 ص 128 .

(28) العربي إسماعيل ، المرجع السابق ، ص 133 .

(29) يحي جلال ، المرجع السابق ، ص 156 .

(30) العربي إسماعيل ، المرجع السابق ، ص 134

(31) يحي جلال ، المرجع السابق ، ص 156 .

(32) موسى علي ، جغرافية العالم الإقليمية ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1981 ، ص 60 .

(33)LA REVUE AFRIQUAINE , 1863 , p141

(34) الخطيب أحمد ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، م . و . ك ، الجزائر 1985 ، ص 59 .

(35) الخطيب ، نفس المرجع ، ص 58 .

(36) ص . م . ، مفهوم الإصلاح عند الشيخ التبسي ، عن مجلة المجاهد ، العدد 1445 ، 15 أبريل 1988 ، ص ص 58 . 59 .

(37) JULIEN (Charles André) , HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE , T(1) , LA CONQUETE ET LES DEBUTS DE LA COLONISATION 1827 – 1871 , P.U.F. , 2eme ED. , FRANCE , 1986 , p 179

(38) رؤوف عماد عبد السلام ، ملامح الوعي القومي عند العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى ا لحرب العالمية الأولى ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 81 نوفمبر 1985 ، ص ص 112 . 116